د. جمعة المقشندعي
كلية التربية
عمارة

منشورات جامعة البعث

كلية التربية

علم النفس العام

(الجزء الاول)

الدكتور
أنطوان حمصي

١٤٣
ال ف

طبع بإذن خاص من جامعة دمشق

٦٤٠٩٦٨١٠
عمارة زينة

مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية

المقدمة

هذا الكتاب هو مجموعة من فصول تغطي مقرر علم النفس العام (١) للسنة الأولى في كلية التربية • والموضوعات التي عرضناها في هذا الكتاب تؤلف ، مع مثيلاتها التي ستضمها فصول الجزء الثاني الذي سيغطي مقرر علم النفس العام (٢)، ما نعتقد بأنه ضروري لطلاب اتصرفوا للتخصص في التربية أو في علم النفس • وطبيعي أن فصول هذا الكتاب بجزئيه لا تستنفد كل الموضوعات الممكنة في علم النفس العام • فيما يجب أن ينطوي عليه كتاب يحمل هذا الاسم مسألة مختلف عليها وغالباً ما تخضع لاعتبارات شخصية أو مذهبية ، أي لرأي المؤلف أو للمدرسة السيكولوجية التي يذهب اليها تفضيله • ومن يرجع الى عدد كاف من الكتب المؤلفة في علم النفس العام ، في أكثر من لغة ، يتحقق من هذا الامر • فمن أقل من النادر أن يتفق كتابان في فهرس الابحاث التي يتناولها كل منهما • الا أن القارىء سوف يتبين أمرا آخر وهو أن هناك موضوعات تؤلف قاسماً مشتركاً بين معظم الكتب ، ان لم يكن بينها جميعها • وهذه الموضوعات هي ، بالضبط ، التي تم اختيارها لتشكل المادة التي يدرسها مقرر علم النفس العام ، بجزئيه ، في السنة الأولى من كلية التربية •

واذا كان المؤلفون يخضعون في اختيار موضوعات كتبهم لاعتبارات شخصية أو مذهبية ، فان خضوعنا كان لإعتبارات تدريسية • ولم يخفف من أسفنا لاضطرارنا الى تجاوز بعض الموضوعات التي تبدو لنا أساسية الا قناعتنا بأنها ستكون موضع بحث ودراسة مفصلين في السنوات القادمة •

وقد كان همنا منصباً ، عند اعدادنا لهذا الكتاب ، على الرجوع الى أحدث ما أمكن ان نصل اليه من المراجع والدراسات لنضع طالبنا ، منذ البداية ، على طريق المستحدث والمستجد في هذا العلم الغني •

وبعد ، فهذا كتاب نرجو أن يكون عوناً للطلاب ، لا على دراسة المقرر الـذي يغطيه فحسب ، بل وعلى فهم علم النفس ومنطلقاته وأسسه بصورة عامة . واذا اتفق ان فاتنا بعض التوفيق ، فانه يبقى اننا لم نوفر جهداً ولم نتراجع أمام مشقة لبلـوغ الغايـة .

دمشق ، حزيران ١٩٨٦

انطون حمصي

الفصل الاول

المدخل الى علم النفس

تساءل الانسان ، منذ أقدم العصور المعروفة ، عن الطبيعة الانسانية . وقد طرح الانسان ، وما زال يطرح ، أسئلة كالتالية : ما الذي يجعلني أتصرف على هذه الصورة أو تلك ؟ ما معنى الاحلام ؟ لماذا يختلف بعض الافراد عن البعض الآخر ؟

المنجمون القدامى كانوا يستطلعون السماء بحثاً عن اجابات . فموقع النجوم في برهة الولادة ، فيما كانوا يرون ، يحدد طبع الطفل الوليد ، وبعض القدامى كانوا يعتمدون مظهر الفرد الخارجي ، أو هيئته للتنبؤ بطبعه ، وكان هناك من يربط تشابه المظهر بين الاشخاص والحيوانات بتشابه في الخصائص السيكولوجية : فمن شابه ثعلباً كان ماكراً ، ومن شابه ذئباً كان أقرب الى أن يكون مفترساً ضارياً .

وقد كان التنجيم واستطلاع الهيئة طريقتين من طرق عديدة استخدمها الناس في محاولاتهم لتفسير السلوك الانساني . وعبر السنين ، كانت اجابات الحس العام عن المسائل اليومية للعلاقات الانسانية تنتقل من جيل الى آخر على صورة أمثال وحكايات وحكم شعبية مثل قولهم : « الطبع يغلب التطبع » أو « من شابه أباه فما ظلم » أو « بعيد عن العين بعيد عن الخاطر » وغير ذلك من الامثلة والحكم .

وفي الوقت نفسه ، كان كبار المفكرين يتأملون في الطبيعة الانسانية . فقد وصف بنتام (١٧٤٨ ــ ١٨٣٢) الكائنات الانسانية بوصفها كائنات عقلانية تصنع قراراتها وخياراتها بتوجيه من مصالحها الذاتية . وألح غوستاف لوبون (١٨٤١ ــ ١٩٣١) على لاعقلانية الجماهير واندفاعها . ورأى توماس هوبز (١٥٨٨ ــ ١٦٧٩) الانسان كائناً أنانياً وعدوانياً يحتاج الى حكومة قوية لضبط اندفاعاته . أما روسو (١٧١٢ ــ ١٧٧٨) ، فقد رأى في قيود المدنية قوة هدامة لنبل الكائن الانساني

الطبيعي ، المتوحش النبيل . ان كل تصور من هذه التصورات ينطوي على جزء من الحقيقة .

ان كل هذه المحاولات ــ التنجيم ، الامثال والفلسفة ــ تبين أن الكائنات الانسانية تسعى ، دائماً ، الى استخلاص مبادىء عامة للسلوك الانساني ، من خلال خبراتها ، من أجل مساعدتها على فهم الأفكار والمشاعر والافعال . وعلم النفس ، اليوم ، طريقة أساسية لتنظيم المعرفة حول السلوك الانساني .

شيء من التاريخ :

يقول عالم النفس الشهير هيرمان ابنغهاوس : « ان لعلم النفس ماضياً بعيداً ولكن تاريخه قصير » . وابنغهاوس يقصد ، من عبارته، ان علم النفس لم يستقر كعلم راسخ معترف به قبل النصف الثاني من القرن التاسع عشر . والحقيقة ان بعض المؤرخين بعد عام ١٨٦٠ ، ــ وهو تاريخ صدور كتاب «عناصر علم النفس الفيزيائي» للعالم الالماني تيودور فيخنر ــ بداية علم النفس الحديث ، في حين يعتمد معظمهم عام ١٨٧٩ ، وهو تاريخ تأسيس أول مخبر لعلم النفس في جامعة لايبزيغ على يد ولهلم فوندت ، بداية لهذا العلم .

ولكن تحديد تاريخ دقيق لبداية علم ما مسألة اصطلاحية ومصطنعة . فما من واقعة ممكن فصلها عن سوابقها وارتكاساتها . ولا يمكن لحدث مثل صدور كتاب أو انشاء مخبر أن يكون الهاماً مفاجئاً مقطوع الصلة بما سبقه . ولذلك ، فليس من الممكن أن نبحث علم النفس بعد فخنر أو بعد فوندت دون أن يجانبنا الصواب . فمسائل علم النفس لن تفهم دون العودة الى أصولها العميقة ، أي الى الفلسفة والبيولوجيا والفيزيولوجيا وغيرها من العلوم التي تشابكت معها أصول علم النفس في بعض الفترات .

١ ــ الأصول الفلسفية :

يعود اهتمام الفكر الانساني بمسائل النفس والطبيعة البشرية الى عصور

الفلسفة اليونانية . فقد انتهى الفلاسفة اليونان الى الاقتناع بأن في الانسان جانباً غير الذي تلمحه العين أو تدركه الحواس الأخرى ، وان هذا الجانب غير المرئي مسؤول عن بعض الظواهر المحيّرة ، كالأحلام والشهوات والاندفاعات والحسم والتردد في القرارات وما شابه . واطلقوا على هذا الجانب المسؤول عن الخبرة والسلوك اسم النفس أو الروح Psyche دون أن يحملوا هذه التسمية أي مضمون ديني . وحاولوا التعرف على طبيعة هذه النفس عن طريق الملاحظة والوصف .

وكان أفلاطون وارسطو ، من بين الفلاسفة اليونان ، الأقرب ، في نظراتهما ، الى الصواب . فقد وحد أفلاطون بين النفس والافكار (أو المثل) التي اعتبرها جوهراً غير مادي مستقلاً عن الجسد، وُجد قبله ويبقى بعده ومسكنه الدماغ الذي هو أقرب أجزاء الجسم الى السماء . أما أرسطو ، فكان أقرب الى الوحدانية في نظرته حين تصور النفس وظيفة للجسد ، غير مستقلة عنه وجعل من الافكار نتاجاً لتأثير المحيط في المضوية .

وقد ورث الفكر العربي التأمل الفلسفي عن الفلاسفة اليونانيين ، ولاسيما عن ارسطو . ولم يكن تصورهم للنفس مختلفاً عن تصور المعلم الأول ممزوجاً بالشاغل الديني والاخلاقي . وبالرغم من هذا ، فقد كانت ، هناك ، بعض الامثلة المشرقة من الفلاسفة العرب الذين حاولوا فهم بعض المشكلات السلوكية بطريقة علمية . وربما كان من المفيد عرض عناوين بعض المخطوطات العربية لبيان مدى قربها من الروح العلمية . فمن بين هذه المخطوطات : كتاب في الملاخوليا لأحمد بن أبي الاشعث ، مقال في مرض المرقية (توهم المرض) لسعيد بن أبي بشر ، مقال في فقدان الذكر لأبي جعفر الجزار ، الرسالة الشافية في أدوية النسيان لاسحق بن حنين ، من علل اختلاف الناس في أخلاقهم وسيرهم وشهواتهم واختيارهم لقسطة بن لوقا ، كتاب سياسة البدن وفضيلة الشرب ومنافعه ومضاره وما يتولى للمكثر منه وينفع للمقل منه لمحمد رستم الطبيب ، وذلك بالاضافة الى كتابات ابن سينا المشهورة .

وتقابل عصور ازدهار الفكر العربي القرون الوسطى في اوروبا . والمناخ

الفكري ، في هذه الحقبة التاريخية ، لم يكن بالمناخ المناسب لتأمل علمي في طبيعة النفس البشرية .

وكان يجب انتظار القرن السابع عشر ليبدأ ديكارت (١٥٩٦ ــ ١٦٥٠) انطلاقة دعمت البحث السيكولوجي . فالجسد ، في رأي ديكارت ، آلة تتحرك وتتصرف وفق طرائق يمكن التنبؤ بها اذا عرفت مدخلاتها . وما يمكن التنبؤ به خاضع للبحث ، لذلك ، فان العضوية الانسانية والحيوانية قابلة للبحث العلمي . واستناداً الى هذه النظرة ، قدم ديكارت تفسيرات طبق ، من خلالها ، مبادىء الفيزياء على آليات الجسد . وطبق لاميتري (١٧٠٩ ــ ١٧٥١) التفسير الميكانيكي نفسه على السلوك البشري وعبر عن قناعته بأن الشخص آلة تتوقف ، جسداً وعقلاً ، على أحداث فيزيائية .

وقد كانت الفلسفة الخبرية الانكليزية أشد المذاهب الفلسفية تأثيراً في صياغة المفهوم المبكر لعلم النفس على أيدي فلاسفة مثل جون لوك (١٦٣٢ ــ ١٧٠٤) ودافيد هيوم (١٧١١ ــ ١٧٧٦) وجيمس ميل (١٧٧٣ ــ ١٨٣٦) وغيرهم . ولا يتضمن نعت « الخبرية » أي شيء خبري يتصل بمناهج هؤلاء المفكرين ، ولكنه يشير ، فقط ، الى أن كل المعرفة الانسانية ، في رأيهم ، ناجمة عن الخبرة ، وليس عن الافكار الفطرية التي آمن بها ديكارت وليبنتز وكانت وعدد غير قليل من المفكرين .

وأفكار فلاسفة التقليد الخبري ليست متماثلة ، ولكنهم يشتركون في تصور للعقل الانساني تبناه ، فيما بعد ، علم النفس واستمر ، من خلال أشكال متنوعة ، حتى بدايات القرن العشرين . ومن صفات هذه السيكولوجيا أنها كانت سيكولوجيا حواس من حيث انها افترضت ان كل خبرة ، في نهاية المطاف ، حسية في طابعها . وكانت وظيفة الفلسفة العقلية ، وعلم النفس بعدها ، تحليل ما هو موجود في عقولنا الى مكونات حسية (بصرية ، سمعية الخ ..) .

وهكذا كان علم النفس ، في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، تجزيئياً يؤمن بأن كل الحياة العقلية مبنية من « ذرات » الخبرة الحسية . والمبدأ

الذي يضبط هذا البناء كان مبدأ ارتباط الافكار بالتجاور . وبعبارة أخرى ، كانت هذه السيكولوجية المبكرة ربطية في نظرتها . وكانت هذه النظرة تبدو معقولة ، الا أنها لم تكن تقوم على أية دراسات خبرية منهجية للادراك والافاعيل المعرفية . يضاف الى ذلك أن تيار الفكر السيكولوجي كان ، أيضاً ، استبطانياً وعقلياً من حيث أنه كان يفترض ان ما هو داخل عقولنا مفتوح امام التحليل العقلي عن طريق الاستبطان.

وكان العقل ، في تقليد الخبرية الانكليزية ، منفعلاً بمعنى أنه يبدأ لوحة بيضاء ثم ينمو نتيجة لتأثير الخبرة الحسية . ولكن معظم علماء نفس القرن التاسع عشر كانوا يعتبرون العقل الانساني فعالاً وممتلكاً لبعض « الملكات » . فخبراتنا توزن ، كما تقول « سيكولوجية الملكات » هذه ، من جانب ملكة الحكم التي تنظمها ملكة المحاكمة التي تختزنها ملكة الذاكرة ، وهكذا دواليك . وقد عارض الفيلسوف وعالم النفس الامريكي وليم جيمس هذا الرأي وقدم أدلة تجريبية على أنه لا يمكن تدريب الذاكرة ، مثلاً ، بهذه الطريقة .

وبالرغم من أن علم النفس قد رسخ ذاته ، في أواخر القرن التاسع عشر ، كعلم مستقل يقوم على الملاحظة والتجريب المنهجيين ، فان الفلسفة العقلية ظلت تحوم . لقد كان الاسلوب الجديد في التفكير جلياً ، ولكن تصورات السيكولوجية الفلسفية كانت بارزة بدورها . ويقول البروفسور مبس ان مدارس علم النفس الحديثة التي نشأت وازدهرت في العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين يمكن أن تعد ثورات ضد هذه أو تلك من الفرضيات المشتقة من تقاليد الخبرية الفلسفية .

ان فرويد قد نحّى ، جانباً ، التصور العقلي للأفاعيل الفكرية على أساس أن العقل لا يستطيع النفاذ الى اللاشعور الذي تصوره التحليل النفسي والذي تتحكم، فيه ، الدوافع الغريزية . وتحدت السلوكية الواطسونية علم النفس الاستبطاني منادية بأن المكتشفات العلمية يجب أن تقوم على الملاحظة الموضوعية لا على الذاتية الاستبطانية . وهوجمت التجزيئية من جانب سيكولوجية الغشتالت التي قدمت الادلة على كون المدركات « غشتالتات » كلية . أو بنى. منذ البداية وعلى أنها ليست

مبنية من احساسات متميزة ومنفصلة . ووضعت الربطية، تدريجياً، موضع المساءلة، أو خضعت ، على الاقل ، لتحديدات واعادات للصياغة .

وكان نموذج العقل المنفعل والمتلقي للافكار والاحساسات ، كما تصوره لوك وهيوم ، أول ما ذهب من تصورات الخبرية . فقد تخلى عنه أوائل علماء النفس الفلاسفة أمثال توماس براون وجون ستيوارت ميل ، كما تخلى عنه وليم جيمس الذي يمثل مرحلة انتقالية الى علم النفس التجريبي . فالعقل الفعال والمتوقع والمعتقد والمتوقف على شروط جسدية كان أقرب الى التوافق مع النظرة البيولوجية .

وقد كانت أواخر القرن التاسع عشر هي الفترة التي التقت ، فيها ، التيارات الفلسفية والبيولوجية في الفكر السيكولوجي . ولذلك ، فان علينا أن نوجه انتباهنا، الآن ، الى الاصول البيولوجية لعلم النفس .

٢ ـ الاصول البيولوجية :

أدى مدلول تطور العضويات بالاصطفاء الطبيعي ، أو الداروينية ، الى رؤية السلوك الانساني في ضوء جديد هو ضوء سياقه البيولوجي . وكان انبثاق علم النفس المقارن احدى نتائج هذه النظرة . وقد أدى المناخ العام ، أيضاً ، الى تقدم في علم النفس الفيزيولوجي . وكان ازدهار الطب النفسي واحداً من ضروب التقدم العديدة في الطب . وقد بلغ الطب النفسي الذروة مع فرويد الذي الح ، منذ بدايات هذا القرن ، على نظريات الدوافع والشخصية . وفي الوقت نفسه ، أدت الدراسات الفيزيولوجية ، مباشرة ، الى أبحاث بافلوف في روسيا . وقد كان لعمل بافلوف تأثير عميق في الدراسات السيكولوجية للتعلم الحيواني والبشري كما أحدث ، أيضاً ، تأثيراً كبيراً . وان لم يكن مباشراً ، في دراسة الادراك وعلم النفس النمائي .

وقد كان لداروين ، الى جانب تأثيره العام في العلوم البيولوجية والاجتماعية ، اهتمام خاص بعلم النفس المقارن . فقد نشر ، في أواخر حياته ، مطولاً حول الهيجانات لدى الحيوانات والانسان . الا أن كثيرين ينسبون الى لويد مورغان فضل انشاء علم النفس المقارن الحديث . فقد ألح على أن السبيل الوحيد الى المعرفة

الموثوق بها في ميدان السلوك الحيواني هو الملاحظات التجريبية ضمن شروط مضبوطة . وانتقد التفسيرات التي تنسب الى الحيوان قدرات عقلية شبيهة بقدرات الانسان .

وقد أحدث فرويد ، في الطب النفسي والفنون والبحث الاجتماعي ، وفي الجمهور المثقف ، من التأثير ما حمل كثيرين على الايمان بأن التحليل النفسي الفرويدي يجب أن يكون النواة المركزية في علم النفس . والواقع أن مكان التحليل النفسي في علم النفس كان ، وما زال ، موضع جدل ومساءلة . فالتفكير الفرويدي أثر ، دون أدنى شك ، تأثيراً عظيماً في علم النفس المرضي ، وفي سيكولوجية الدوافع والشخصية ، وكذلك في ميادين أخرى ، كعلم النفس الاجتماعي وعلم النفس المقارن نفسه . الا أن أفكار التحليل النفسي لم تقبل ، قط ، قبولاً عاماً . ويعود ذلك ، في نصيب كبير منه ، الى كونه يتوقف على أدلة عيادية غير مؤكدة ، وهي أدلة تقبل ، دائماً تقريباً ، تفسيرات عديدة .

وربما استطعنا أن نقول أن تأثير فرويد في علم النفس لم يكن بيولوجياً بقدر ما كان فكرياً . ويمكن ، دون ان نوافق على آراء فرويد أو أن نرفضها ، أن نذكر بأنه كان طبيباً معنياً بالبيولوجيا وغير راض عن الطب النفسي في أيامه . وتأثير الطب النفسي في علم النفس سابق لفرويد . فقد كان للباحثين الفرنسيين ، شاركو وبرنهايم ثم جانيه ، بعض التأثير في نهاية القرن الماضي . ولتفكير فرويد نفسه بعض الجذور في الطب النفسي الفرنسي ، لاسيما في اهتمامه بالتنويم المغناطيسي . ويصعب ، الآن ، أن نقول أياً من اسهامات التحليل النفسي كان الاهم . الا أننا نستطيع أن نذكر ، من بين أكثرها دلالة ، الالحاح على الافاعيل العقلية اللاشعورية ودور الجنس في الدافعية والنمو النفسي ــ الجنسي للطفل وفكرة الآليات النفسية الديناميكية كالكبت والتصعيد والاسقاط الخ ... ويحاول علم النفس الحديث فحص الأفكار الملهمة العديدة لدى فرويد والفرويديين الحديثين في سبيل دمج ما يمكن دمجه منها في كيان المعرفة السيكولوجية الراسخة .

وكان بافلوف عالماً فيزيولوجيا عدت أبحاثه في المنعكسات الاشراطية ، وما

زالت تعد ، من صميم الفيزيولوجيا . الا أن أبحاثه شملت، أساساً، تقصيات مخبرية للتعلم الحيواني ، وللسلوك الحيواني بصورة أعم ، أكثر مما تضمنت فيزيولوجيا حيوانية بالمعنى الضيق للكلمة . وقد جرى العمل الأساسي في السنوات الاولى من هذا القرن وكان له ، منذ ذلك الحين ، وما زال له تأثير عظيم في نمو علم النفس . فلا يمكن تصور الدراسات الحديثة في التعلم الحيواني ، كما في التعلم البشري ، دون الأسس التي أرساها عمل بافلوف وعمل مساعديه وخلفائه . وكل نظريات التعلم حديثة ، بصورة أو بأخرى ، لدراسات بافلوف الرائدة . ان علم النفس ، في صورته الحديثة ، مدين لجذوره البيولوجية المختلفة أكثر مما هو مدين لأية جذور أخرى .

٢ ـ التيار السيكولوجي :

انشىء أول مخبر لعلم النفس في لا يبزيغ (في المانيا الديمقراطية اليوم) عام ١٨٧٩ على يد ولهلم فوندت . وقد اقتفى فونـدت ، في مقاربته التجريبية لعلم النفس ، خطا فيزيولوجيين وعلماء آخرين أجروا ، في وقت ما ، دراسات سيكولوجية في ميدان السيكوفيزياء ، أي دراسات تناولت العلاقات بين المثيرات الفيزيائية والاحساسات التي تستجرها . وكان البحث في المخبر الحديث معنياً بالرؤية والسمع وغيرهما من الاحساسات وبالانتباه والحكم على الزمن وأزمنة الرجع وما شابه . وكان شاغل فوندت الأساسي زمن الرجع الانساني والمسمى ، حالياً ، زمن الكمون ، أي الزمن الذي يستغرقه شخص ما للاستجابة لمثير . وقد تدرب عدد من علماء النفس الألمان والفرنسيين والانكليز والامريكيين في معهد لايبزيغ لعلم النفس ،وهو الاسم الذي أطلق على المخبر . وهكذا كانت الدراسات المخبرية التي جرت على مفحوصين بشريين بدايات لما سمي بعلم النفس التجريبي . وكان يقصد من نعت « التجريبي » ان يعبر عن البعد عن علم النفس الفلسفي . وكان التجريبيون مقتنعين بأن أهم الاسهامات في المعرفة تأتي عن طريق الملاحظات التجريبية المنهجية أكثر مما تأتي عن طريق تأمل الظواهر السيكولوجية .

لقد أشرنا الى عبارة ابنغهاوس القائلة ان تاريخ علم النفس قصير . وهذه

العبارة ما زالت تذكر ، حتى اليوم ، تبريراً لما يظن أنه ضحالة في منجزات هذا العلم. ان كل قارىء متتبع لعلم النفس يستطيع أن يحكم بنفسه على أبعاد منجزاته . ولكننا نرى لزاماً علينا إن نقول ان الزعم بأن علم النفس علم فتي ليس الحقيقة كاملة . والامر لا يتوقف عند بياننا ان الاصول الفلسفية لعلم النفس تردنا قروناً عديدة الى الوراء ، وان أصوله البيولوجية تردنا الى أكثر من قرن . فنحن نملك من الادلة ما يبين أن علم النفس التجريبي نفسه يسبق ، بكثير ، انشاء أول مخبر لعلم النفس. فدراسات فيبر وفخنر التجريبية لمسائل العلاقات بين المثيرات والاحساسات تعود الى النصف الاول من القرن التاسع عشر ، وقانون فيبر ـ فخنر مازال مقبولاً ، حتى اليوم ، ضمن بعض الشروط . وقد درس زمن الرجع قبل فوندت . كما درست رؤية الالوان والتسهيلات المتبادلة بين الحواس . ويجب أن نذكر أن هذه المسائل ما زالت تدرس حتى اليوم، وان كانت الدراسة أعمق والاجهزة المخبرية أدق. ومهما يكن من أمر ، فان العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر شهدا نمواً سريعاً للتجريب في علم النفس .

وعلماء النفس التجريبي لا يقتصرون ، اليوم ، على دراسة الافاعيل الحسية، بل هم يبحثون ، أيضاً ، في الذاكرة والتعلم وحل المسائل ، وحتى في الجماليات . ويرمي علم النفس التجريبي الى أن يكون خبرياً وكمياً والى تجنب انعدام الدقة والتأمل غير المبرر . وهكذا ، فان كلمة « تجريبي » تشير الى طريقة بحث وليس الى فرع من فروع علم النفس . والطموح المعلن هو ان تصبح كل فروع علم النفس تجريبية . والواقع هو ان بعض الفروع أطوع للتجريب من بعض الفروع الأخرى . ان علم النفس الفيزيولوجي تجريبي الى درجة عالية . ودراسة الذاكرة والتعلم تجريبية الى حد بعيد . وبعض ميادين الشخصية تجريبي وبعضها الآخر ليس كذلك. أما علم النفس المعرفي ، فمعظمه غير تجريبي . وبدور ، أحياناً ، جدال حاد لبيان ما اذا كانت الطريقة التجريبية أفضل طرق علم النفس . فبعضهم يراها مجدية ولا بأس لا تنطبق على الوجوه الحيوية للشخصية الانسانية والحياة العقلية . ومهما يكن من أمر ، فيجب أن نشير الى أن نعت « تجريبي » مستعمل اليوم ، أكثر من أي وقت

مضى ، في عناوين كتب علم النفس ومجلاته . وكثير من كتب النصوص في علم النفس التجريبي تبين ، بوضوح ، قابلية المناهج التجريبية للتطبيق الواسع في علم النفس .

٤ ـ الروافد العلمية الأخرى :

جذور علم النفس الحديث لا تقتصر على المصادر الثلاثة السالفة الذكر . فهناك تأثير هام مبكر آخر مرتبط باسم فرنسيس غالتون الذي كان ، في النصف الثاني من القرن الماضي ، رائداً للمقاربة الكمية في دراسة الفروق الفردية ولاستعمال المناهج الاحصائية في علم النفس . وكان غالتون عالم نفس وبيولوجياً وفيلسوفاً متنوع الاهتمامات . وقد عني عناية خاصة بدراسة وراثة العبقرية (١٨٩٠) . وقد أدى ذلك الى العمل على تحديد القابليات البشرية وتوزعها بين السكان . وبالرغم من أن بحثه كان محدوداً بضآلة الدراسات في الوراثة، في عصره، وباصراره على تجاهل المؤثرات البيئية ، فانه افتتح حركة القياس الجسدي والعقلي وطور طرائق الترابط الحديثة . والحق ان غالتون ساعد في تطور علم النفس في اتجاه العلم الصحيح بالحاحه على الاجراءات الكمية .

وقد نمت في بدايات هذا القرن ، حركة القياس النفسي التي كانت ، في صميمها ، تجريبية . وفي الوقت نفسه ، برزت ايديولوجيات متباينة ، كالتحليل النفسي والسلوكية والغشتالتية . وبدأت مؤثرات جديدة في الظهور في فترة ما بين الحربين . ومن بين أهم هذه المؤثرات الانتروبولوجيا الاجتماعية التي ظهر تأثيرها ، أول ما ظهر ، في علم النفس الاجتماعي وعلم النفس المرضي وفي دراسة الفروق الفردية . ويعود الفضل في نمو الانتروبولوجيا الى مالينوفسكي الذي قام بدراسات ميدانية في مجتمعات جنوب المحيط الهادي . وقد ساعد ، هو وباحثون آخرون ، مثل مرغريت ميد (١٩٢٨) ، في تركيز الانتباه على آثار أنماط تربية الاطفال وتأثيرات الخبرات الثقافية المبكرة في صياغة الشخصية . وقد بينوا ، كذلك ، أن أفكارنا حول ما هو السلوك السوي وما هو مقبول اجتماعياً محددة بالثقافة الخاصة التي نعيش ونعمل ضمنها .

وقد تنازعت علم النفس ، دائماً ، نزعتان متطرفتان متعاكستان هما البيئية التي تلح على جاهزية الفرد للمؤثرات الاجتماعية الثقافية ، والفطرية التي تلح على أهمية السمات الفطرية في الشخصية الانسانية . والتقليد الاول ممثل في الذين يعدون عقل الوليد لوحة بيضاء ، كالفلاسفة الجبريين الانكليز أو جان جاك روسو . وينتمي الى هذا التقليد ، الى حد بعيد، السلوكيون والفرويديون والبافلوفيون . كما يمضي تأثير الانتروبولوجيا الاجتماعية في الاتجاه نفسه . اما النزعة الفطرية ، فهي ممثلة بفلاسفة مثل ديكارت وبعض علماء نفس الربع الاول من هذا القرن ، مثل وليم ماك دوغال الذي شدد على أهمية الغرائز في السلوك البشري . والذين يدرسون الادراك ضمن التقليد الغشتالتي فطريون في الجوهر .

وكذلك هو الأمر بالنسبة الى علماء الايتولوجيا الذين درسوا السلوك من وجهة نظر علم الحيوان .

والايتولوجيا طريقة في دراسة السلوك الحيواني تطورت في أوروبا . لقد قامت الدراسة التقليدية لعلم النفس المقارن على دراسات مخبرية ، للتعلم الحيواني بشكل خاص ، استخدمت في الغالب ، ثديات صغيرة كالأرنب والفئران والقطط ، أما الدراسات الأيتولوجية ، فقد غطت عدداً أكبر من الأنواع وشملت ملاحظات ميدانية ضمن شروط طبيعية . والشاغل الأساسي للايتولوجيا كان خصائص السلوك الغريزي . وفي حين مال علم النفس المقارن الى الاهتمام بالقوانين العامة بصرف النظر عن الأنواع ، فان الايتولوجيين ركزوا على الفروق بين الأنواع . وهذا التركيز ، بالاضافة إلى الأبحاث الايتولوجية في المحددات الوراثية لنماذج السلوك ، نبه علماء النفس الى الحدود البيولوجية للتعلم . وفي الوقت نفسه ، مازالت قيمة الدراسات المخبرية في تقدم فهمنا للسلوك الحيواني تحظى بالاعتراف أكثر من أي وقت مضى . والواقع ان الابحاث الحالية في السلوك الحيواني تبدو تركيباً بين مناهج علم النفس المقارن ومناهج الايتولوجيا .

وهناك روافد أخرى أثرت في علم النفس المعاصر مثل علم السبرنيتيك الذي

وصف بأنه دراسة للضبط والاتصال في الانسان والآلة والذي يشر بطرائق جديدة في دراسة الانسان ، ومثل نظرية الاعلام الحديثة التي أعطت علم النفس بعض تعابيرها ، كالمدخل والمخرج والاعلام المنقول الخ .... كما زودته بطريقة جديدة في الصياغة الكمية لبعض متحولاته في الادراك والذاكرة والاتصال اللفظي وغير ذلك من المفاهيم .

تعريف علم النفس

قد يبدو الامر غريباً ، ولكن الواقع هو كذلك : فتقديم تعريف لعلم النفس يحظى بقبول عام مسألة ليست باليسيرة . ولعلنا نجد تفسيراً لهذه الصعوبة في تنوع المنابت التي نشأ ، ضمنها ، علم النفس وترعرع ، وفي سعة الميدان الذي تغطيه اهتماماته والخلافات العلمية والفلسفية بين علمائه ومدارسه .

لقد تأثر علم النفس بجذوره الفلسفية الى أبعد الحدود . وكانت الخبرية الانكليزية أشد المذاهب الفلسفية تأثيراً في صياغة المفهوم المبكر لعلم النفس . وكانت هذه الفلسفة والسيكولوجيا التي اشتقت منها معنيتين بالمعرفة الانسانية الناجمة ، في رأي الخبريين ، عن الخبرة الحسية . ولذلك كانت مهمة علم النفس تحليل محتويات العقل الى مكوناتها الحسية . وهذا التيار العقلي الذي ساد علم النفس في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين انعكس في التعريفات التي أعطيت لعلم النفس . فالفيلسوف والعالم النفسي الامريكي الشهير وليم جيمس يعرف ، في كتابه « دروس مختصرة في علم النفس » . هذا العلم بأنه « وصف حالات الشعور وتفسيرها في حد ذاتها » . وظل هذا التعريف مقبولاً في الولايات المتحدة فترة طويلة . أما في أوروبا . فان كتاب جيمس سولي الذي كان معتمداً في انكلترا ، وعنوانه « المجمل في علم النفس » ، يعرف علم النفس بأنه العلم الذي يهتم بحوادث العالم الداخلي . وقد كان تعريف فوندت ذروة التعريفات العقلية لعلم النفس على اعتبار انه كان يعد الأب المؤسس لهذا العلم . ففي عام ١٨٩٢ ، عرف فوندت علم النفس بوصفه العلم الذي يبحث في الخبرة الداخلية ، أي في الاحساس والمشاعر

والارادة ، تمييزاً له عن العلوم الطبيعية التي تبحث في الخبرة الخارجية . الا أنه عدّل تعريفه عام ١٨٩٦ ، فاستعمل تعبير « الخبرة المباشرة » بدلاً من تعبير « الخبرة الداخلية » ، مشيراً بذلك الى خبرتنا حول الأمور الخارجية أيضاً .

الا أن التعريفات العقلية لعلم النفس تعرضت لهجمة عنيفة من جانب السلوكية التي طبعت علم النفس الامريكي بطابعها منذ العقد الثاني من هذا القرن حتى اليوم. ففي عام ١٩١٣ ، نشر جون واطسون ، مؤسس السلوكية ، مقالة في « المجلة السيكولوجية » بعنوان « علم النفس كما يراه السلوكي » عرّف، فيها، علم النفس بأنه فرع تجريبي موضوعي من العلم الطبيعي ، هدفه النظري التنبؤ بالسلوك وضبطه . ودعا واطسون علم النفس الى رفض كل رجوع الى الشعور والتخلي عن توهمه بأن حالات النفس يمكن أن تكون موضع ملاحظة . وعلى ذلك ، فقد كان علم النفس ، في نظر السلوكيين ، علم السلوك .

وقد قامت محاولات توفيقية عرفت علم النفس بأنه « علم الخبرة والسلوك » على اعتبار أن بعض علماء النفس متخصصون في بحث الخبرة والشعور ، وان بعضهم متخصصون بدراسة السلوك ، في حين ان الاغلبية تبحث الخبرة والسلوك معاً .

ونحن نرى أننا نستطيع قبول التعريف التالي : علم النفس هو علم السلوك البشري والحيواني المطبق على المسائل الانسانية . ان هذا التعريف يحتاج الى مزيد من التوضيح الذي يتناول جوانبه المختلفة .

ان السيكولوجيا علم . والعلم هو بنيان من المعرفة المنهجية التي يجري تحصيلها بملاحظة الاحداث وقياسها وبتجارب يصممها الباحث ، أحياناً ، لاستدعاء الاحداث التي يريد دراستها . ويتم التنسيق بين الملاحظات بطرق عديدة ، أهمها تصنيفها في فئات وصياغة قوانين ومبادىء عامة لوصف الاحداث الجديدة والتنبؤ بها على أدق صورة ممكنة . وبما أن علم النفس يملك هذه الخصائص ، فهو ، اذن ، ميدان علمي .

ولعلم النفس ، دون شك ، جانبه التطبيقي، كما يقول الجزء الثاني من تعريفه.

وتطبيق المعرفة على المسائل العملية فن ومهارة وبراعة. فالمعالج النفسي الذي يتحدث الى عميل قلق ، وعالم النفس التربوي الذي يقدم مشورته لتلميذ من أجل حل مساله دراسية ، وعالم النفس الاجتماعي الـذي يحاول انهاء توتـر في العلاقات بين ادارة مؤسسة والمشتغلين فيها ، يمارسون فن علم النفس . وكما ينبغي الطبيب أو المهندس مهارة استخدام المعرفة العلمية في مسائل عملية ، فان علماء النفس هؤلاء تعلمـوا ، من خلال خبراتهم الخاصة ، مهارات تطبيق علم النفس . ولا يمكن تعلم فن تطبيـق علم النفس من خلال كتاب . وكل ما يستطيعه الكتاب هو تعليم المبادىء الكامنـة وراء التطبيقات العملية .

أما كلمة سلوك ، فهي تشمل أي شيء يفعله الانسان أو الحيـوان ويمكن أن يلاحظ بطريقة من الطرق . والسلوك يعني ، بالنسبة الى عالم النفس ، ما هو أكثـر من مجرد الحركات الجسدية. فهو يمكن أن يشتمل على المشاعر والاتجاهات والافكار وغيرها من الافاعيل العقلية ، وكلها احداث داخلية لا يمكن أن تلاحظ مباشرة ، اذا أمكن قياسها من خلال مايقوله الافراد وكيفية استجابتهم لمختلف المسائل والمواقف. وجعل السلوك القابل للملاحظة المعرف تعريفاً واسعاً ، موضوعاً لعلم النفس يتيح له أن يكون علماً موضوعياً . فما يقوله الشخص أو ما يفعله خاضع للبحث الموضوعي خضوع تفاعل كيميائي في أنبوبة اختبار لهذا البحث . وربما كان السلوك أعقد من التفاعل الكيميائي وربما كانت القياسات السيكولوجيـة أقل دقـة من القياسات الكيميائية ، ولكن الملاحظات السيكولوجية والكيميائية هي نفسها ، مبدئياً ، مـن حيث ان قواعد العلم تطبق في الحالتين : فكما يستخـدم الكيميائي مبادىء العلـم لتفسير الاحداث الكيميائية والتنبؤ بها ، كذلك يستخدم عالم النفس مبادىء العلم لفهم السلوك والتنبؤ به. وفي ضوء هذه المناقشة نستطيع أن نتوسع في القسم الأول من تعريف علم النفس فنقـول إنه العلـم الذي يسعى الى فهـم السلوك الانساني والحيواني والتنبؤ به .

لماذا يشتمل تعريف علم النفس على السلوك الحيواني ؟ ان كثـيراً من علمـاء النفس يدرسون سلوك الحيوان ، بالرغم من أن مركز الالحاح في علم النفس يقـع

على السلوك الانساني ، وذلك لأن السلوك الحيواني هام في ذاته ، وهام من حيث ما يقوله لنا عن أنفسنا . فالدراسة المقارنة للسلوك العدواني لدى عدة أنواع حيوانية ، مثلاً ، يمكن أن تلقي ضوءاً على الفعاليات الانسانية المماثلة . وبالاضافة الى ذلك ، فان تقبل التجارب الحيوانية لشروط الضبط العلمي أشد من تقبل التجارب التي تجري على مفحوصين بشريين لهذه الشروط . والمبادىء السلوكية المكتشفة في التجارب الحيوانية المضبوطة غالباً ماتعمم على الكائنات البشرية . فمعظم مانعرفه عن الأفاعيل الاساسية في تكون العادات ، مثلاً ، جاء من تجارب جرت على الحيوانات . وأخيراً ، فيجب استخدام الحيوانات في التجارب التي تكون ، فيها ، المخاطر التي تتعرض لها صحة المفحوصين أو حياتهم من السعة بحيث يحرم استخدام كائنات انسانية فيها . فلنفترض أن عالم نفس يريد ان يختبر مفعول أحد العقاقير في علاج مسألة سلوكية ، كالكحولية مثلاً . ان العقار يجب أن يجرب على حيوانات كحولية قبل أن يتم البحث العيادي على كائنات بشرية لأنه قد تكون للعقار تأثيرات جانبية .

وليس علم النفس العلم الوحيد الذي يدرس السلوك . فالطب النفسي والانتروبولوجيا وعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد والعلوم السياسية والجغرافيا والتاريخ تدرس ، بدورها ، وجوها متنوعة من السلوك . وهي تؤلف ، مع علم النفس ، مجموعة العلوم المسماة بالعلوم السلوكية . وما يميز علم النفس عن العلوم السلوكية الاخرى هو انشغاله الحصري بالسلوك ، من جهة ، والتنوع الواسع من أنواع السلوك التي يدرسها من جهة أخرى .

وهكذا رسخ علم النفس اقدامه ضمن التقليد العلمي الى الدرجة التي أصبح ، معها ، اسمه (في اللغة العربية على الاقل) ، غير منسجم مع واقعه . فهو لا يدرس النفس ولا يتناول بالبحث ظواهر لايمكن أن تخضع للملاحظة المنظمة . ورب سائل: لماذا لا يغير الاسم ، اذن ، ويستبدل به آخر أقرب الى مضمونه ؟ والجواب هو أن اسم العلم جزء من كيانه الذي تكامل خلال تاريخ طويل . والعبث بالتاريخ ليس بالمسألة المأمونة ، دائماً ، مهما كانت المبررات .

ميادين علم النفس :

حاولنا ، في الفقرة السابقة ، تعريف علم النفس بصورة مجردة . ولكننا نستطيع ، أيضاً ، ان نعرفه بتعابير انسانية ، أي بالنظر الى أنواع العمل الذي يقوم به علماء النفس . ونستطيع ، منذ الوهلة الاولى، اذ تبين أن علماء النفس منخرطون في العديد المتنوع من الفعاليات . فبعضهم معني بنمو السلوك خلال الطفولة ، وبعضهم مهتم بدراسة الأفاعيل الحسية ، وبعضهم مشغول بتأثير العقاقير في السلوك، وبعضهم معالج يحاول مساعدة الناس في حل مسائلهم السلوكية .

ولا يختلف علماء النفس في اهتماماتهم السلوكية فقط ، بل هم مختلفون ، أيضاً ، في درجة انشغالهم بتطبيقات علم النفس على مسائل الحياة .

وهناك من علماء النفس من تقتحم اهتماماتهم عدة ميادين أو من هم معنيون بمسائل لا تمثلها فروع علم النفس التي سنناقش أهمها فيما يلي :

١ ــ علم النفس التجريبي :

يسعى عدد من علماء النفس الى فهم الاسباب الأساسية للسلوك . وهم يقومون بما يسمى ، أحياناً ، «البحث الأساسي» دارسين بعضاً من العمليات الاساسية كالتعلم والذاكرة والاحساس والادراك والتحريض . وبعبارة أخرى ، فان علم النفس التجريبي يدرس كيفية تعديل السلوك وكيفية احتفاظ الناس بهذه التعديلات ،وكيف تعمل المنظومات الحسية البشرية لتسمح للناس باختبار ما يجري حولهم والعوامل التي تضغط عليهم وتوجه سلوكهم . وبعض من هؤلاء العلماء معني بالعلاقة بين الدماغ والفعاليات البيولوجية الأخرى ، من جهة ، وبين السلوك من جهة أخرى . ويطلق على هذا الفرع اسم « علم النفس الفيزيولوجي » .

والتجارب المضبوطة ، كما يتبين من اسم هذا الميدان ، هي منهج البحث الرئيسي الذي يستخدمه علم النفس التجريبي . الا أن المنهج التجريبي ليس حكراً لهذا الفرع ، فقد يستخدم علم النفس الاجتماعي ، مثلاً ، التجريب ليحدد تأثيرات الضغوط الاجتماعية المتنوعة في سلوك الفرد . وهكذا ، فان ما يميز علم النفس

التجريبي ليس ، بالرغم من اسمه ، المنهج ، بل ان ما يميزه عن الفروع الأخرى هو ما يدرسه ، أي عمليات الادراك ، لاحساس والذاكرة والتعلم والدوافع والاسس الفيزيولوجية والبيولوجية للسلوك .

٢ ـ علم النفس النمائي :

يحاول علم النفس النمائي فهم أنواع السلوك المعقدة بدراسة بداياتها ومعرفة الطرق النظامية التي تتغير بها عبر الزمان . فاذا استطعنا تبين أصل سلوك ما ورسمنا مساره النمائي ، فسوف يؤهلنا ذلك لفهم أفضل له . وبما أن التغيرات في السلوك سريعة في سنوات الحياة المبكرة ، فان علم نفس الطفل الذي يدرس سلوك الاطفال يغطي مدى واسعاً من علم النفس النمائي . ولكن التغيرات النمائية تحدث ، أيضاً ، في المراهقة والرشد والعمر المتقدم ، وهكذا تكون دراسة هذه التغيرات جزءاً من علم النفس النمائي .

وفي علم النفس النمائي جانب البحث ، وفيه الجوانب التطبيقية . فقد جرى ، فيه ، مثلاً ، بحث واسع في نمو التفكير لدى الاطفال . أما من الناحية التطبيقية ، فان علم النفس النمائي معني ، أيضاً ، بالاطفال الذي يعانون اضطرابات سلوكية وكثيراً ما تكون انواع السلوك لدى الاطفال المشكلين مختلفة عن مثيلاتها لدى الراشدين المشكلين وتقتضي ، وبالتالي ، مناهج مختلفة في مقاربتها ومعالجتها .

٣ ـ علم النفس التربوي :

هذا الفرع من علم النفس معني بزيادة الكفاية في التعلم المدرسي من خلال تطبيق المعارف السيكولوجية حول التعلم والدوافع على منهاج الدراسة وطرق التدريس . وبالرغم من أن علم النفس التربوي معني بالمسائل العامة ، الا أنه يشمل ، أيضاً ، ما يسمى بعلم النفس المدرسي . واسم عالم النفس المدرسي يطلق على من يوفر خدمات الارشاد في المدارس . والمسائل التي يواجهها علم النفس المدرسي متخصصة الى حد ما ، والأمر كذلك بالنسبة الى تقنياته ، وهذا ما يبرر افراد فرع له . وعالم النفس المدرسي معني بروز الطلاب وارشادهم عندما يحتاجون الى عناية

خاصة . فالروز يوفر معلومات قد تكون مفيدة في تشخيص الصعوبات السلوكية والتعامل معها . فقد يوصي عالم النفس المدرسي ، على أساس الروائز والمعلومات الأخرى ، مثلاً ، باحالة طفل يعاني مشكلات في القراءة الى صف علاجي متخصص. وقد يوجه طالباً يعاني مشكلات في تكيفه ليتلقى علاجاً نفسياً .

٤ ـ علم النفس الاجتماعي :

ينتمي كل الناس الى أنواع مختلفة من المجموعات الاجتماعية كالأسرة والمدرسة والحي والنادي والبلدة وغير ذلك من المجموعات. والمجموعات التي ننتمي اليها تؤثر في سلوكنا وتحدد اتجاهاتنا . وعلم النفس الاجتماعي معني ، بصورة أولية ، بدراسة ما تحدثه عضوية الفرد في مجموعة من تأثيرات في سلوكه . فقد يدرس علم النفس الاجتماعي كيف تتأثر قرارات عضو في احدى اللجان بما يقوله ويفعله الاعضاء الآخرون في هذه اللجنة . الا أن مركز الالحاح يقع ، أحياناً ، على الطريقة التي يؤثر ، بها ، الفرد في مجموعة ، كما هو الأمر في الدراسات المتصلة بالقيادة . ويركز علم النفس الاجتماعي ، أيضاً ، على الطرائق التي ندرك ، بها ، الآخرين وكيف تؤثر هذه الادراكات في سلوكنا حيالهم . ويتداخل علم النفس الاجتماعي مع علم الاجتماع . الا ان عالم النفس الاجتماعي يقصر اهتماماته على المجموعات الصغيرة وتأثيرها في الفرد ، في حين ينشغل عالم الاجتماع بالصفات الشكلية للمجموعات وبناها ، كما يهتم بما تفعله المجموعات الواسعة من الناس . الا أن الحدود بين هذين الميدانين من الدراسة غير واضحة دائماً : فعلم النفس الاجتماعي يدرس ، أحياناً ، خصائص المجموعات وسلوك الجماهير .

ولعلم النفس الاجتماعي جانبه التطبيقي . فقد طور علماء النفس الاجتماعي تقنيات لقياس الاتجاهات والآراء . والدراسات المسحية للآراء السياسية واتجاهات المستهلكين والاتجاهات حيال المسائل الخلافية . وتقدم للسياسيين والمسؤولين عن المؤسسات الاقتصادية والقادة الاجتماعيين المعلومات الضرورية لصنع القرارات الهامة .

٥ ـ علم النفس الصناعي :

أول تطبيق لعلم النفس على مسائل الصناعة والمنظمات كان استخدام روائز الذكاء والقدرات في اختيار المستخدمين . وتستخدم عدة مؤسسات ، اليوم ، تعديلات جديدة لهذه الروائز في برامج الاستخدام لديها . وتطبق المؤسسات العامة والخاصة ، أيضاً ، علم النفس على مسائل الادارة والتدريب وتحسين الاتصال داخل المؤسسة وارشاد المستخدمين ورفع سوية المردود الصناعي .

وهناك ، في بعض البلدان ، مكاتب للاستشارات السيكولوجية في ميدان الصناعة والادارة تبيع خدماتها لمن يحتاج اليها. فهي تضع برنامجا لاختيار المستخدمين في مؤسسة ، وتوصي بتعديلات في برنامج التدريب في مؤسسة أخرى ، وتحلل مسائل العلاقات بين العاملين في مؤسسة ثالثة ، كما قد تقوم بدراسة لاتجاهات المستهلكين حيال بعض المنتجات .

٦ ـ علم النفس العيادي :

لعل هذا الميدان أقرب الميادين الى الفكرة المتكونة لدى العامة من الناس حول علم النفس . فعلماء النفس ، في نظر الناس ، « أطباء » يشخصون الاضطرابات السلوكية ويعالجونها علاجاً نفسياً. والواقع أن هذا هو ميدان علم النفس العيادي. الا أنه يجب الانتباه الى عدم الخلط بين علم النفس العيادي والطب النفسي . وأوضح تمييز بين الميدانين هو أن العياديين أخصائيون تدربوا في ميدان علم النفس وحصلوا على شهادات فيه ، خلافاً للأطباء النفسيين الذين يحملون شهادة في الطب العام وتخصصاً في الطب النفسي . وهذا يعني ، بالتالي ، ان العياديين لا يستطيعون وصف الادوية لمعالجة الاضطرابات السلوكية . الا أن العيادي ، من جهة أخرى ، أفضل تدريباً من الطبيب في ميدان البحث ، ولذلك فهو اقدر منه على اجراء أبحاث تتناول تحسين طرائق التشخيص والعلاج والوقاية من الاضطرابات السلوكية . وينزع العيادي ، أيضاً ، الى الاعتماد على الروائز المقننة في التشخيص أكثر من اعتماد الطبيب عليها .

وينشأ الخلط بين علم النفس العيادي والطب النفسي عن كون الميدانين يوفران علاجاً نفسياً. فكلاهما يستخدم تقنيات متنوعة لشفاء أعراض الاضطرابات السلوكية ومساعدة الناس على فهم اسباب مسائلهم . ومثل هذه التقنيات العلاجية تتراوح بين توفير الدعم والأمن لشخص ما في أزمة عابرة وبين البحث الشامل عن الدوافع الكامنة وراء السلوك .

ويجب التمييز بين علم النفس العيادي والتحليل لنفسي . فالمحلل النفسي شخص يستخدم التقنيات العلاجية التي طورها فرويد واتباعه . ومن حصل على تدريب خاص في هذه التقنيات فانه يستطيع أن يعمل محللا نفسياً. وبما أن تقنيات فرويد قد نشأت ، في الاصل ، في الطب النفسي ، فالاطباء النفسيون هم أول من تبنى التحليل النفسي . وهناك ،اليوم ، كثير من الاطباء النفسيين الذين يعتمدون التحليل النفسي . الا أن العيادي الذي تلقى تدريباً على هذه التقنية يستطيع أن يمارسها .

٧ ـ علم النفس الارشادي :

يشبه عمل علم النفس الارشادي ، الى حد بعيد ، عمل علم النفس العيادي . والفرق بينهما هو أن عالم النفس الارشادي يعمل ، عادة ، مع أشخاص يعانون مسائل شخصية وانفعالية خفيفة . وقد يستخدم العلاج النفسي في محاولة للمساعدة في هذه المسائل . وغالباً ما يستشار عالم النفس الارشادي من جانب أشخاص في مسائل خاصة،كاختيار مهنة أو برنامج تربوي،وقد يستخدم علم النفس الارشادي، في ممارسته ، الروائز استخداماً واسعاً لقياس القدرات والاهتمامات والخصائص الشخصية . ويحاول عدد من المختصين في علم النفس ارشاد الناس الذين يعانون مشكلات في حياتهم الاسرية . ويعتبر هؤلاء ، عادة ، مستشارين في شؤون الزواج والأسرة .

ان هذه الميادين لا تغطي كل علم النفس في اهتماماته وتطبيقاته . الا أنها تكفي لإعطاء القارىء المبتدىء في علم النفس فكرة أولية عن الاهمية النظرية والعملية لهذا العلم .

طرائق علم النفس :

منذ أن تحرر علم النفس من أسار الفلسفة وغدا دراسة مستقلة في حد ذاتها ، لها ميادينها وطرائقها وتطبيقاتها ، نشأ سؤال يطرح بين حين وآخر هو : هل السيكولوجيا علم حقيقي ؟ والجواب عن هذا السؤال ليتوقف على ما نفهمه من كلمة « علم » . وخصائص البحث العلمي من شأن فلسفة العلم . ومهما يكن من أمر ، واذا تركنا تعقيدات المسألة جانباً ، فمن المقبول ، عموماً ، ان ما يؤكده العلم يجب أن يقع تحت أضواء الدليل الخبري . الا أن هناك من المعتقدات ، في علم النفس ، ما لا يقوم على أدلة خبرية لأن هذه الأدلة غير متوفرة ، ومثل هذه المعتقدات ليس من العلم . الا أن هناك ، أيضاً ، منطقة حيادية يخضع انتماؤها الى ميدان العلم للمساءلة . ويقع نصيب كبير من علم النفس في هذه المنطقة . واهمال الموضوعات التي لا تخضع للمعالجة العلمية المضبوطة يعني التخلي عن قطاعات واسعة سعة الدوافع والشخصية وعلم النفس الاجتماعي مثلاً . وكثيرون من المتخصصين في فلسفة العلم يعلنون ، اليوم ، أن التأمل المبدع لا يقل أهمية عن الوقائع العلمية الراسخة . الا أن ذلك لا يعني ، في حال من الأحوال ، رد علم النفس الى ما يشبه المعتقدات الشخصية . فتجاهل القوانين العلمية المنهجية يعني الحكم على علم النفس بأن يدور في حلقة مفرغة . واذا كنا تتمسك بنسبة صفة العلم الى علم النفس في وجه الذين يصرون على انكار هذه الصفة عليه ، فان علينا أن نعترف بأن ميداناً ما من ميادين الدراسة لا يكون علماً الا بقدر ما يلتزم الطريقة العلمية . والهدف الحقيقي للبحث يجب أن يكون طرح أسئلة هامة ومحاولة الاجابة عنها بأكثر ما تسمح به الظروف من موضوعية . فما هي المناهج التي يعتمدها علم النفس في طرح أسئلته وجمع وقائعه واستخراج اجاباته ؟

ان علم النفس يعتمد ، أكثر ما يعتمد ، المناهج التالية :

١ ــ المنهج الاستبطاني ، ٢ ــ المنهج التجريبي ، ٣ ــ منهج الملاحظة ، ٤ ــ المنهج العيادي .

١ ـ المنهج الاستبطاني :

ويطلق على هذا المنهج ، أيضاً، اسم منهج الملاحظة الذاتية. ويقوم هذا المنهج، كما يتبين اسمه ، على تأمل المرء ذاته وملاحظتـه لحوادثـه النفسية . فاذا أردنا أن نعرف شيئاً عن خبرة نفسية ما ، من ادراك أو تذكر أو ألم أو لذة أو تعلم أو هيجان وغير ذلك من الخبرات والاحداث ، فما علينا سـوى أن نتأمل ذواتنا حين وقـوع الخبرات علينا . وقد كان الاستبطان هو المنهج الحصري الذي استقى منه الفلاسفة العقلانيون الوقائع التي استخرجوا منها النتائج بالمحاكمة . ولكن فوندت ، رائـد علم النفس الحديث ومؤسسه ، هو الذي أعلنه منهجاً وحيداً للبحث في علم النفس . وكان تبني فوندت لهذا المنهج نتيجة حتميـة لتعريفه علم النفس على أنه الدراسـة التحليلية للخبرة المباشرة . فالخبرة المباشرة وقف على من يعانيها وهـو ، وحده ، القادر على ملاحظتها ، ولا تتحول الى واقعة علمية الا عبر التقرير اللفظي الذي يدلي به المستبطن .

وقد فرق فوندت بين الاستبطان التجريبي ، أي الملاحظـة الذاتية المقصودة ، والاستبطان غير التجريبي ، أي الملاحظة الذاتيـة غير المقصودة أو العفوية ، وعـد الأول ، وحده ، منهجاً علمياً ، في حين رأى ان الملاحظة العفوية ، أي الانتباه العارض الى خبرة نفسية وتأملها ، غير مفيدة في الاغراض العلمية . فتثبيت الانتباه ، وهـو شرط الاستبطان المفيد ، يقتضي استقلال موضـوع الملاحظة عن الملاحظ . وهـذا الاستقلال لا يتحقق في أية ملاحظة ذاتية دون مساعدة التجريب . فاذا شرع المـرء في ملاحظة ذاته ، فان ذلك سيؤدي الى تغييرات في مجرى الاحداث يفسدها أو يزيل الأفاعيل التي تراد ملاحظتها في الشعور . اما الاستبطان التجريبي ، فانه يتم بعـد خلق شروط خارجية تنتج أفاعيل عقلية محددة في أية برهة نريدها بحيث تبقى الحالة الشعورية المصاحبة لهذه الافاعيل دون تغير تقريباً .

ويقتضي الاستبطان التجريبي عدداً من الشروط من جانب المستبطن أهمهـا الهدوء والراحة والتدريب والموضوعية . فلا يمكن للمرء أن يتأمل ذاته تأملاً مفيداً مركزاً ما لم يكن في حالة من الهدوء والاسترخاء التامين . فالاضطراب والتوتر يخلقان

شروطاً متوترة ينشغل ، بها ، المستبطن عن موضوع الملاحظة . وقد تشدد تتشنز فيما يتصل بالاجراءات : فلا يمكن للاستبطان ، في رأيه ، أن يعطى نتائج علمية مقبولة الا اذا جرى على أيدي مستبطنين تلقوا تدريباً جيداً . ويساعد هذا التدريب المستبطن على الانسلاخ عن موضوع ملاحظته ، فينسى ، في انتباهه الى الظواهر الواقعة تحت الملاحظة ، نسياناً كلياً أن ينتبه الى حالة الملاحظة انتباها ذاتياً . وينصب التدرب ، كذلك ، على تهيئة الشروط لتكوّن لغة استبطانية مشتركة تمكن الملاحظ من اعادة الملاحظات التي أجراها ملاحظ آخر بحيث يتأكد من صدق نتائج التجرب . وقد بقي خلق مثل هذه اللغة المشتركة طموحاً لم يكتب له التحقق . ولو كان هناك بصيص أمل في تحقيق مثل هذا الطموح لكانت الموضوعية التامة ، وهي شرط أساسي من شروط الاستبطان التجريبي ، أمراً محققاً أو قابلاً ، على الأقل ، للتحقيق .

وقد مرت فترة في أواخر القرن الماضي ، بدا ، فيها ، الاستبطان المنهج الوحيد المعتمد في علم النفس . الا ان هذا المنهج تعرض لهجمات عنيفة لم يسع فونت ، الأب المؤسس لعلم النفس والمبشر بالاستبطان التجريبي ، الا أن يعترف بصواب بعضها ويعتبره مسائل للبحث الذي يستهدف سد الثغرات ومواجهة الانتقادات . وقد انصب معظم الانتقادات على ما يلي :

١ ــ ان التقرير الاستبطاني يعتمد على نوع من التذكر الراجع . فعندما يدلي المستبطن بتقريره ، يكون الحدث الذي استبطنه قد انقضى وغدا من الماضي . والنسيان سريع لاسيما حين يعاني المرء خبرة . لذلك ، فان في الخبرة المتذكرة ثغرات يملؤها المستبطن حين يدلي بتقريره . وكثيراً ما تسد الثغرات بما يتوافق مع الفرضية التي يحاول المستبطن اثباتها .

٢ ــ فعل الاستبطان يمكن أن يدخل تغييرات أساسية على الخبرة المستبطنة . فالاستبطان يقتضي انقسام الشعور بين متأمل (بكسر الميم) ومتأمل (بفتحها) ، وهو أمر اذا طال ، من شأنه أن يفسد الخبرة الخارجية . وأقرب مثال الى الواقع هو مثال استبطان الخبرة الهيجانية . فالهيجان ، بالتعريف ، اضطراب . ولكن الاستبطان يشترط الهدوء : فكيف يمكن للشعور أن ينقسم بين مضطرب وهادىء ؟ ان هذا

الانسان مستحيل ، والشعور يستقر على حاله واحدة : فلماذا استمر الهيجان ، أي الاضطراب ، كان الاستبطان غير ممكن ، أما اذا ساد الهدوء ، فانه لا يبقى للمستبطن ما يستبطنه . وكان أوغست كونت أعنف من حملوا على الاستبطان حين أوضح ان الاستبطان يحمل في ذاته استحالته أو منافاته للعقل . فعلى العقل ان يتوقف عن العمل من أجل أن يصبح الاستبطان ممكناً . فاذا توقف ، لم يعد هناك شيء يلاحظ .

٣ ــ التقرير الاستبطاني يفتقر الى الموضوعية . فالوقائع التي يحصل عليها علماء مختلفون في مختبرات مختلفة غير متفقة ، بل غالباً ما تكون متناقضة . فالاستبطان منهج ذاتي يصعب أن يخضع لشروط الضبط العلمي الدقيقة بحيث لا يمكن للملاحظ أن يعيد ملاحظة استبطانية أجراها سواه ليتحقق من صدق نتائجه . وتضاف الى هذه الصعوبة مشكلة أخرى من طبيعة لغوية . فليست ، هناك ، كلمات مقننة للتعبير عن الخبرات الشعورية . وحين يحاول المرء أن يصف حالة شعورية بأدق ما يمكن من التعابير ، فانه ينتهي الى التسليم بأنه لا يجد الكلمات المناسبة التي تصف خبرته بكل تنوعها وغناها .

٤ ــ وهناك انتقاد رابع أشد حسماً . فقد توفرت ، منذ القديم ، أدلة قوية على وجود وقائع تنتمي الى علم النفس لا يستطيع الاستبطان أن يصل اليها . وهذه الوقائع هي الوقائع اللاشعورية المعروفة منذ أفلاطون وعالم المثل لديه . وقد ترسخ الاعتراف بهذه الوقائع بعد ثورة التحليل النفسي الذي أثبت أن اللاشعور هو الواقع النفسي الحقيقي وان الشعور منطقة ضيقة تقع ضمن مجال اللاشعور . وقد برهن التحليل النفسي بما لا يرقى اليه الشك على أن العوامل اللاشعورية تلعب الدور الاساسي في التكيف أو عدمه وفي دفع السلوك في الحياة اليومية . يضاف الى ذلك ان علم النفس الحيواني قد حقق مكتسبات هامة من خلال دراسة لسلوك الحيوان ، وهي دراسة لا يمكن ، دون شك ، ان يستخدم ، فيها ، الاستبطان .

وهناك انتقادات أخرى كثيرة ليس ما ذكرنا الا النموذج الهام والشائع التكرر منها . فما من منهج أو مذهب تعرض لسهام النقد مثلما تعرض المنهج الاستبطاني . ولكن ، هل تعني هذه الانتقادات استحالة الاحتفاظ بالاستبطان منهجاً في دراسة

علم النفس؟ ودون تردد نجيب : ان الهجمات التي تعرض لها الاستبطان تعني ، فقط ، اننا لا نستطيع الاعتراف بالاستبطان منهجاً حصرياً لعلم النفس . وهذا يعني ، أيضاً ، انه يجب أن يكون مقبولاً كواحد من المناهج المعتمدة . والحق ان مصير الاستبطان اختلط ، في بعض العقول ، بمصير المدرسة التي أعلنته منهجاً وحيداً صالحاً لدراسة الوقائع النفسية التي كانت ، في نظرها ، وقائع شعورية . فاذا كان الاستبطان ليس كل شيء ، فيجب ألا نعطي الى الطرف المقابل ونقرر أنه ليس شيئاً بالمرة . والواقع هو أن التشكيك في صدق التقرير اللفظي ينطوي على الكثير من المبالغة . فنحن نصف الاشياء التي رأيناها والآخرون يصدقون اننا رأينا ما ندعي رؤيته . والآخرون يصفون ، بدورهم ، ما يرونه فلا نجد سبباً للتشكيك في صدق تقريرهم لما رأوه . ولا أحد ينكر امكان الحصول على نتائج هامة في علوم كالفيزياء والكيمياء والفيزيولوجيا ، عن طريق قبول التقارير اللفظية لملاحظين ومجربين يصفون أشياء لاحظوها . والشرط الاساسي لقبول هذه التقارير هو ان يكون من يدلي بها قادراً على ايضاح ما يعني بأقواله ، مستعيناً بالأمثلة اذا اقتضى الأمر . واذا كان التقرير اللفظي مقبولاً من الفيزيائي والكيميائي ، فلا ندري لماذا نرفضه من عالم النفس .

وخلاصة القول هي ان الاستبطان باقٍ ما بقي العلم اذا كان يعني استخدام الخبرة والتقارير اللفظية المستندة الى هذه الخبرة . وكل ما هو مطلوب ادخال تحسينات على المنهج الاستبطاني والتقدم في استعمال الضوابط التي تحد من نواقصه وعيوبه .

٢ ـ المنهج التجريبي :

السيكولوجيا ، من حيث هي علم ، يجب أن تكون خبرية . وهذا يعني انها يجب أن تقوم على الملاحظة والتجريب لا على الرأي والمعتقد . فعالم النفس يخطط لتجارب وملاحظات يستطيع غيره من العلماء أن يكرروها ، ويحصل على الوقائع على شكل قياسات كمية غالباً بحيث يمكن التحقق منها . وينطلق الباحث من صياغة نظرية أو فرضية تلخص عدداً من الملاحظات وتتنبأ بما يمكن أن تتوقع حدوثه في

موقف جديد . فالنظرية ، وكذلك الفرضية ، حل مؤقت يقترحه الباحث لمسألة البحث في انتظار أن تؤيده نتائج التجربة أو تدحضه أو تحمل الباحث على تعديله . ويستخدم الباحث القياس حيث يمكن ذلك ، ويلجأ الى الوصف والتصنيف حين لا يكون القياس ممكناً . ويقدم الباحث ، أيضاً ، تعريفات للمصطلحات التي يستعملها من أجل ان يكون القراء والباحثون الآخرون على بينة من الزاوية التي ينظر منها الى الظاهرة المدروسة . وقد يكون التعريف قاموسياً ، الا أن خير التعريفات لغرض البحث العلمي هي التعريفات الاجرائية التي تعرف الظواهر بالطرق المستعملة في قياسها أو في معالجتها ، كتعريف الذكاء ، مثلاً ، بالعلامة التي يحرزها المفحوص في رائز من روائز الذكاء .

ويقوم التجريب على ما يلي : ١ ــ تغيير في المتحولات التي يفترض الباحث أن لها أثراً في المسألة التي يدرسها . ٢ ــ ضبط الشروط التجريبية . ٣ ــ ملاحظة أثر تغير المتحولات في الموقف المدروس .

ان فهم المنهج التجريبي في علم النفس يقتضي مزيداً من التفصيل في هذه الخطوات .

١ ــ المتحولات :

المتحولة حدث أو شرط أو صفة يمكن أن يكون لها قيم متعددة (كالعمر وطول القامة والذكاء والعلامة الخ ...) وقد تكون المتحولة مستقلة تابعة . والمتحولة المستقلة شرط يختاره المجرب ليرى ما اذا كان ذا تأثير في السلوك . وقد يكون هذا الشرط عقاراً أو طريقة في التدريب أو ظاهرة اجتماعية وغير ذلك . أما المتحولة التابعة ، فهي السلوك المدروس في التجربة . وقد تكون المتحولة التابعة في تجربة استجابة لمثير أو تغيراً في السلوك بعد حقن المفحوص بعقار أو تغيرات في السلوك التعلمي نتيجة لبرنامج جديد في التدريب أو علامة في رائز أو تقريراً لفظياً عن حدث في محيط وتسمى هذه المتحولة تابعة لأنها تتوقف على قيمة المتحولة المستقلة التي يختارها المجرب مباشرة .

وعندما يضع المجرب فرضيته ، فان المتحولة المستقلة هي تلك التي يتوقع أن تحدث تأثيراً في المتحولة التابعة . لنتأمل ، مثلاً ، الفرضية التالية : يتوقف الزمن اللازم لتعلم بند فردي في قائمة من المقاطع العديمة المعنى على طول هذه القائمة . ان المتحولة المستقلة في هذه الفرضية هي طول القائمة الذي يمكن أن يتخذ عدداً من القيم (٥ ، ١٠ ، ١٥ ، ٢٠ مقطعاً) ، في حين أن الزمن اللازم لتعلم كل مقطع هو المتحولة التابعة .

٢ ـ ضبط الشروط التجريبية :

وهناك صفة هامة جداً في المنهج التجريبي هي الضبط . فمن المهم في أية تجربة ألا يسمح لغير المتحولات المستقلة بالتغير . ان هناك عوامل أخرى ، غير المتحولة المستقلة ، يمكن أن تؤثر في المتحولة التابعة . ولذلك يجب الاحتفاظ بهذه العوامل ثابتة . فاذا كنا ندرس أثر طول القائمة في الزمن اللازم لتعلم كل بند فردي ، فيجب ألا نسمح لغير متحول طول القائمة بالتغير . فلا يجوز أن تكون احدى القوائم مؤلفة من مقاطع عديمة المعنى وأخرى من أرقام وثالثة من كلمات ورابعة من جمل الخ ... لاننا ، في هذه الحالة ، لا نعرف ما الذي أثر في الزمن اللازم للتعلم : أهو طول القائمة أم الاختلاف من حيث الامتلاء بالمعنى . وتستخدم في ضبط العوامل الدخيلة طريقتان هما : مجموعات الضبط والاساس السلوكي .

وتستخدم ، في طريقة مجموعات الضبط ، مجموعة تجريبية ومجموعة ضابطة في كل تجربة . ويفترض في المجموعتين أن تتساويا في كل الشروط باستثناء الشرط التجريبي . فلنفترض أننا نخطط لتجربة من أجل التحقق من الفرضية التالية : ان معرفة المتعلمين بنتائجهم في المحاولات المتعاقبة أثناء تعلمهم تحسن اداءهم . ان طريقة مجموعة الضبط تقوم ، هنا ، على اختيار مجموعتين من الافراد المتعادلين من حيث الذكاء والعمر والجنس والقدرة على التعلم الخ ... وتكليف المجموعتين بالمهمة التعلمية نفسها . والفرق الوحيد هو أن أفراد المجموعة التجريبية يطلعون على تقدمهم في التعلم في كل محاولة من المحاولات حتى ينجزوا المهمة ، في حين لا يتم أفراد

مجموعة الضبط بمهمتهم دون أن يطلعوا على نتائجهم في أية محاولة . فأفراد المجموعتين تساووا في كل الشروط باستثناء الشرط الذي هو المتحولة المستقلة .

اما في طريقة الاساس السلوكي ، فان المجرب يقيس السلوك الذي يريد دراسته قبل التجربة. لنفترض ان الفرضية موضع البحث تتصل بأثر التعب في الاداء التعلمي . ان المجرب يبدأ بقياس هذا الاداء في الشروط الطبيعية ، ثم يدخل متحولة التعب بدرجات متنوعة . وفي نهاية التجربة يقارن المجرب النتائج التي حصل عليها بالأساس السلوكي أي بالأداء في الشروط الطبيعية . وبعض المجربين يستخدم طريقة مشتقة تسمى « آ ــ ب ــ آ » حيث تكون (آ) الاداء في الشروط الطبيعية و (ب) الاداء في شروط التعب . وهذا يعني ان المجرب ينهي تجربته بقياس جديد للأداء التعلمي في الشروط الطبيعية . وهذه الطريقة في الضبط جيدة حيث لا يكون للشروط التجريبية أثر بعيد المدى .

ان التجربة لا تكون ، قط ، أفضل من ضبطها . وهذا يعني ان على المجرب أن يعنى عناية خاصة بضبط تجاربه . وهذا الضبط ليس سهلاً دائماً ، ولاسيما في علم النفس حيث يمكن لعديد من العوامل أن يؤثر في السلوك المدروس . ولذلك يجب أن يؤخذ هذا الأمر بعين الاعتبار عند تفسير النتائج التجريبية .

٣ ــ التكرار :

من المهم ، في التجريب ، أن تكون التجارب ممكنة التكرار من جانب المجرب نفسه ومن جانب مجربين آخرين . ان هذه الإعادة سهلة في علم ، كالكيمياء مثلاً ، حيث يمكن للمجرب أن يعيد تجربة اجراها مجرب آخر وان يحصل على النتائج نفسها اذا كانت لديه الاجهزة نفسها ولم يقع خطأ في احدى التجربتين . اما في علم النفس . فان ذلك يقتضي ضبط عدد كبير من الشروط . واذا امكن ذلك ، فان الاعادة تصبح ممكنة . وفوائد التكرار واضحة . فاذا استطعنا اعادة تجربة ما مرة بعد مرة ضمن شروط مضبوطة، فاننا نستطيع التأكد من نتائجها. والمكتشفات التجريبية التي لا يمكن تكرارها لا تصبح ، بوجه عام ، جزءاً من العتاد العلمي . فالتكرار ، وسمي كذلك التمحيص ، شطر هام من المنهج التجريبي .

ان المنهج التجريبي هو أفضل المناهج في جمع المعلومات العلمية . الا أن له بعض جوانب القصور . فهو غير ممكن الاستخدام دائماً ، ولاسيما حين يكون التجريب خطراً على المفحوصين. والتجارب محدودة في تطبيقاتها : فقد تكون النتائج المستخلصة من التجربة قاصرة على موقف تجريبي موضعي بحيث لايمكن تطبيقها في المواقف الطبيعية أو حتى في تجارب أخرى . ويجب أن ينتبه المجربون الى هذه الامكانية وأن يسعوا وراء العموميات في تجاربهم . وقد تكون التجارب ، ثالثاً ، عائقاً في وجه الظاهرة التي تحاول قياسها . فلنتأمل ، مثلاً ، تجربة في التعب . فقد يطبق المجرب على المفحوصين روائز في المهارات والتفكير قبل قضائهم ٢٤ ساعة دون نوم وبعد ذلك ، وقد تكون نتيجة التجربة ان اداء المفحوصين قد تحسن في الروائز النهائي قياساً على حيار الاساس السلوكي . فهل نقول ان ٢٤ ساعة دون نوم مفيدة في الأداء المعقد؟ ان هذا الاستنتاج غير مقبول منطقياً. فلا شك في أن متحولة أخرى قد دخلت التجربة واعاقت قياس آثار التعب . فقد كانت دوافع المفحوصين ، حين دخلوا المخبر ، قوية في اتجاه تحقيق نتائج جيدة، وهذه المتحولة حجبت آثار التعب. وهكذا ، فان المفحوصين قد لا يتصرفون ، أثناء التجربة ، تصرفهم في الحياة اليومية، وهذه الامكانية يجب أن يحسب حسابها في التجريب السلوكي .

٣ ـ منهج الملاحظة :

ان بعض الباحثين يعد الملاحظة المنهجية بديلاً للمنهج التجريبي . وهذا المنهج مشابه للتجريب من حيث أن هناك متحولات يجب أن تقاس ، ولكنه مختلف عنه ، من حيث أن الباحثين لا يملكون حرية معالجة المتحولة المستقلة كما يريدون . فهم يركزون ، بدلاً من ذلك ، على التحولات التي تحدث بصورة طبيعية ، ويستطيع عالم النفس ، بعد الدراسة المنهجية للسلوك الحادث بصورة طبيعية ، أن يستخلص أسباب هذا السلوك مستخدماً بعض قواعد المنطق . ويشترك علم النفس ، في هذا المنهج ، مع عدد من العلوم الأخرى . فلنفترض أن أحد علماء البيئة يدرس تلوث أحد الأنهار . ان التلوث موجود فعلاً ، ولكن السؤال هو من أين يأتي ؟ وربما استطاع العالم ، من خلال القيام بملاحظات منهجية واستخلاص نتائج منطقية منها ، أن يجد مصدر التلوث أي سببه .

ان السمة الأساسية للملاحظة المنهجية في علم النفس هي وصف السلوك كما يحدث بصورة طبيعية . ماذا يفعل الناس ؟ هل يمكن تصنيف أنواع السلوك بطريقة منهجية ؟ كيف يختلف الناس في سلوكهم ؟ ان عالم النفس يستطيع ، مستخدماً الاستبانة والمسح والمقابلات ، أن يدرس الافكار التي تكونها الأسر المحافظة والأسر المتحررة حول أحسن الطرق في تربية الأطفال . وكذلك يستطيع عالم النفس ، مستخدماً وسائل أخرى ، القيام بملاحظات منهجية حول الفروق في الفعالية الدماغية بين الاشخاص المبدعين والاشخاص غير المبدعين ، أو حول الفروق السلوكية بين الذكور والاناث .

ان طريقة الملاحظات المنهجية تكشف لنا عما يفعله الافراد وعن صور اختلافهم في سلوكهم . ان المنهج التجريبي يعطينا وقائع حول العلاقة بين متحولة مستقلة ومتحولة تابعة . ولكن عالم النفس الذي يستخدم طريقة الملاحظات المنهجية قد يريد ، أيضاً ، أن يكشف عن أسباب السلوك الملاحظ ، ولا يكتفي بمجرد ملاحظة هذا السلوك .

ان عالم النفس يجري ، في هذه الحالة ، عدداً من الملاحظات في ظروف مختلفة من أجل أن يكتشف بعض الترابطات . الا أن الاستنتاج ليس سهلا : فكون حدث يقع قبل حدث آخر لا يعني ، بالضرورة ، ان الحدث الاول علة وأن الثاني معلول . يضاف الى ذلك أنه قد يكون للسلوك أسباب عديدة يجب تحريها .

ان هذه المسألة تطرح صعوبات خاصة . لنفترض أن عالم نفس يريد اكتشاف الاسباب العامة لمجموعة الاضطرابات النفسية المعروفة باسم الفصام ، وهو مرض نفسي يتجلى في أنواع غريبة ونابية من السلوك والتفكير وفي استجابات هيجانية غير متكيفة ، كما قد يتجلى في هلوسات وهذيانات . لقد بذلت جهود كبيرة في الكشف عن أسباب هذا المرض نظراً لأهميتها في الوقاية . ولنفترض أن عالم نفس يدرس الفصام طرح فرضية مفادها ان أسبابه كامنة في طريقة تربية الأسر لاطفالها . ان الباحثين سيحاولون ، على وجه الاحتمال ، اختبار هذه الفرضية بالمقارنة بين طرق

تربية الاسوياء وطرق تربية الفصاميين مستخدمين طريقة الملاحظة المنهجية . وهم سوف يختارون مجموعات من الفريقين على أساس عدد من العوامل ، كالجنس والعمر والمستوى الاقتصادي ـ الاجتماعي وعدد سنوات الدراسة والذكاء وما الى ذلك . وسوف يعمدون ، في خطوة تالية ، الى النظر في الممارسات المستخدمة في تربية الاطفال من الفريقين . لقد اكتشف علماء النفس ، باستخدام هذا المنهج ، فروقاً ، ولكن هذه الفروق لا تشير الى أسباب . فكل ما ثبت هو أن هناك فروقاً في التربية مترابطة مع الفصام . الا أن هناك عوامل أخرى قد يكون تفاعلها هو السبب . ويجب القيام بملاحظات عديدة أخرى قبل تبين سبب الفصام .

واكتشاف أسباب السلوك من عدد من الملاحظات مسألة منطقية تتصل بالمحاكمة الاستقرائية ، أي باستخلاص مباديء عامة من حالات خاصة . ومحاولة اكتشاف سبب سلوك خاص تقتضي تفحصاً واعياً لنتائج عدد من الملاحظات وتسجيل أثر عامل خاص نطلق عليه ، مثلاً ، اسم العامل (س) في السلوك المدروس . فاذا وجدنا ان هذا السلوك يحدث ، دائماً ، حين يوجد العامل (س) ولا يحدث ، أبداً ، في غيابه ، فاننا نستطيع أن نبدأ في النظر الى (س) كسبب محتمل لهذا السلوك ، واذا تبين أن مقادير كبيرة من (س) تحدث تغيرات كبيرة في السلوك ، وان المقادير الصغيرة تنتج تغيرات صغيرة ، فان من شأن ذلك أن يقوي الاعتقاد بأن (س) سبب للسلوك المدروس .

الا أن استخراج السببية من الملاحظات ليس سهلاً دائماً . وأحد الاسباب الرئيسية لهذه الصعوبة هو أن عدداً من العوامل المتفاعلة هو الذي ينتج السلوك المدروس . والمسألة، في سلوك الحياة اليومية، هي اكتشاف تركيب العوامل السببية، وهذه ليست بالمهمة السهلة .

٤ ـ المنهج العيادي :

يقوم المنهج العيادي على فكرة اساسية هي ان بعض الوقائع التي تجمع حول ظاهرة من الظواهر لا يمكن أن تفسر التفسير المناسب الا بالاتصال بالاشخاص

المعنيين بها ويطرح فرضيات حول طبيعة استجاباتهم . وهذا المنهج مستعار من ميدان الطب النفسي حيث تستخدم طريقة مماثلة لتبين ما اذا كان المريض يهذي وما هي العوامل الكامنة وراء مرضه .

ويقوم المنهج العيادي على مزيج من استخدام الروائز للحصول على قياسات كمية والملاحظة المنهجية مع تجنب ضروب القصور في هذين المنهجين . فهو يأخذ من طريقة الروائز التجريبية حق العيادي في السؤال وطرح الفرضيات وتحويل الشروط . ولكنه لا يهمل ، كما في الطريقة التجريبية ، السياق الحي والعفوي للفكر ، وهو ما تسمح طريقة الملاحظة بالكشف عنه .

ويتميز المنهج العيادي بالتركيز على عدد قليل من الحالات التي تدرس دراسة معمقة . فهو يستخدم القياسات ومختلف أنواع البيانات التي يستطيع الباحث أن يحصل عليها ، كالسجلات المدرسية والبيانات الصحية ونتائج الروائز المختلفة ان وجدت . ويستعين الباحث، في المنهج العيادي ، بعدد من الاخصائيين الذين يجمعون له الوقائع التي تساعده على التشخيص واكتشاف الاسباب . ويطلق على هذا المنهج ، أيضاً ، اسم منهج « تاريخ الحالة » لأن الباحث يتناول حالة واحدة ويدرسها في حاضرها وماضيها دراسة وافية حتى يصل الى جذورها . ويرى كثير من الباحثين ان دراسة معمقة ودقيقة لعدد قليل من الحالات أفضل من دراسة على مقياس واسع تستخدم المتوسطات لتخفي التقلب وانعدام الثبات في الحالات الفردية ، وهو ما يكون ، في كثير من الاحيان ، الهدف الأساسي للدراسة .

ومن الطبيعي ان هذا المنهج السهل في الظاهر ، عندما يكتفي بذكر المبادىء العامة، صعب جداً ويفترض تدريباً طويلاً . فهو يقتضي من العيادي دقة في التفسير تسمح له باكتشاف الدلالة الحقيقية للاجابات المباشرة التي يحصل عليها وبوضعها في سياقها الطبيعي : فيجب أن يميز بين الاجابات التي تصدر عن صاحب الحالة لمجرد الخلاص من وضع الاستجواب الذي يزعجه ، وتلك التي يوحيها الميل إلى الايهام والتزويق ، وتلك المستلهمة مباشرة من الاسئلة نفسها . ويجب أن يفرق بين هذه

الانواع من الاجابات وتلك التي تعكس حالة واقعية أو اعتقاداً خرافياً . ويخرج جمع البيانات الأخرى عن الحالة صعوبات اضافية لا يسهل ، دائماً ، تذليلها . ولكن هذا المنهج يكون ، أحياناً ، المنهج الوحيد الممكن . والفوائد المتوقعة منه تبرر كل العناء المرتبط به .

المناهج الاحصائية في دراسة علم النفس :

أشرنا ، تكراراً ، في حديثنا عن علم النفس وطرائقه الى القياسات الكمية . وبما أن طموح العلم ، كل علم ، يتمثل في الوصول الى قوانين كمية ، فان الاحصاء أداة أساسية في معالجة الكميات المدروسة . فنحن نستخدم الاحصاء لتلخيص الارقام التي تنجلي عنها الملاحظات والقياسات وتفسير معانيها . وفيما يلي بعض من أهم استعمالات الأحصاء في علم النفس .

اننا نحصل ، عادة ، على قياسات سلوكية ، أو علامات التجارب والملاحظات . وعندما تقاس ظاهرة واحدة لدى عدد من المفحوصين ، فمن المفيد أن نحصل على رقم واحد يعطينا متوسط العلامات . وهذا الرقم يسمى مقياساً للنزعة المركزية . ومقاييس النزعة المركزية المستخدمة هي : المتوسط والوسيط والمنوال .

وعندما تكون لدينا علامات عديدة ، فمن المفيد أيضاً ، أن تكون لدينا طريقة في قياس مدى التنوع بين العلامات الفردية . وتتمثل هذه الطريقة في مقاييس التشتت . وأبسط هذه المقاييس المدى ، وهو الفرق بين أعلى علامة وأدنى علامة في المجموعة . وهناك ، أيضاً ، الانحراف المعياري الذي يقيس تشتت العلامات حول المتوسط ، وهو أشهر هذه المقاييس .

ومن المناهج الاحصائية المستخدمة في علم النفس منهج الترابط . ويشير هذا التعبير الى العلاقة القائمة بين ظاهرتين . وهذه العلاقة ظاهرة في العلامات التي تحصل عليها مجموعة واحدة من المفحوصين في الظاهرتين .

لنفترض أننا نريد أن نتبين ما اذا كانت هناك علاقة بين الذكاء والقدرة على القراءة . ففي هذه الحالة نطبق رائزاً في الذكاء وآخر في القدرة على القراءة على

عينة من المفحوصين ثم نعالج النتائج بطريقة احصائية نستخرج بها معامل الترابط بين الظاهرتين . ويتراوح هذا المعامل بين ــ ١ حين تكون هناك علاقة سلبية كاملة بين ظاهرتين كما هي العلاقة بين وعائين يفرغ ماء أحدهما في الآخر، وصفر عندما لاتكون هناك أية علاقة ، كما هو الأمر في العلاقة بين الذكاء وكثافة الحاجبين ، و + ١ حين تكون هناك علاقة موجبة كاملة، كما هو الأمر في العلاقة بين ارتفاع درجة الحرارة وارتفاع عمود الزئبق في الترمومتر . وتزودنا المناهج الاحصائية بطرائق لتبين قيمة النتائج التي نحصل عليها في مناهج البحث المختلفة . ومن هذه المناهج الاحصائية اختبار الدلالة . لنفترض أننا نبحث في العلاقة بين الذكاء وغنى المحيط بالوسائل الثقافية . ولنفترض أن متوسط حاصل الذكاء لدى عينة من الاطفال المأخوذين من محيط غني ثقافياً كان ١٢٠ درجة وان هذا المتوسط لدى عينة من الاطفال المأخوذين من بيئة فقيرة في وسائلها الثقافية كان ١١٠ درجة . ان النتيجة تكشف ، للوهلة الاولى، عن تفوق لصالح العينة الاولى وتحملنا على ان نستنتج أن غنى البيئة بالوسائل الثقافية عامل مؤثر في الذكاء . الا أن الفرق بين المتوسطين يمكن أن يكون ناجماً عن تحيز في سحب العينتين أو عن عوامل عشوائية . وهنا يأتي اختبار الدلالة ليبين لنا ما اذا كان الفرق بين المتوسطين أعلى من أن يكون ناجماً عن واحد من السببين السابقين ، وما اذا كان هذا الفرق يسمح لنا بتأكيد النتيجة التي سبقت الاشارة اليها .

وللاحصاء خدمات وفوائد أخرى لا مجال للتفصيل فيها هنا . وهي ، كلها ، تشير الى أن دراسة علم النفس لم تعد ممكنة ان لم يتسلح الباحث بمعلومات احصائية مناسبة .

المراجـع العربيـة

١ ـ د. فاخر عاقل : مدارس علم النفس ـ الطبعة الرابعة ـ دار العلـم للملايين ـ بيروت ١٩٧٩ .

٢ ـ د. انطون حمصي : مدارس علم النفس ـ منشورات جامعة دمشق ـ دمشـق ١٩٨٦ .

٣ ـ د. عبد الستار ابراهيم : علم النفس والانسان ـ سلسلة عالم المعرفة ـ الكويت ١٩٨٥ .

المراجـع الاجنبيـة

1 — Taylor A. and others : Introducing Psychology Second Edit, London 1982.

2 — Morgan C., King R. and Robinson N. : Introduction to psychology, Mc Graw - Hill Co, New york 1979.

3 — Mc Keachie W. , Doyle C. and Moffett M. : Psychology Third Edit., Addison - Wesloy Co, California 1976.

4 — Van Dalen D. : Understanding Educational Research, Mc Graw Hill Co, NeW york 1979.

الفصل الثاني

الاسس الفيزيولوجية للسلوك

شغلت مسألة العلاقة بين النفس (أو العقل) والجسد الانسان منذ أقدم العصور الانسانية المعروفة . وكانت الاحلام ، على وجه الاحتمال ، أول ما أقنع الانسان ان فيه أكثر مما تلمحه العين أو تحسه الحواس . واتخذ هذا الجانب غير المرئي ، خلال تاريخ الفكر ، ثلاثة أسماء هي : الروح ، النفس والعقل . وكتابات أفلاطون تثبت أن المسألة كانت مطروحة في أيامه ، وأن الاعتقاد السائد كان ان الانسان مؤلف من مركبين . وقد تباينت الحلول المقدمة لمسألة العلاقة بين هذين المركبين على امتداد العصور ، فكانت ، هناك ، الحلول الثنائية التي تفترض وجود سلسلتين من الافاعيل (عقلية وجسدية) متفاعلتين أو متلازمتين أو منفصلتين انفصالاً تاماً ، والحلول الوحدانية التي تفترض واقعاً فريداً فيزيائياً (المادية) أو عقلياً (المثالية) ، كما كانت ، هناك ، الحلول التوفيقية التي تفترض سلسلتين من الافاعيل تابعتين لواقع واحد أو تفترض أن النفس تتاج نظامي للجسد .

ومهما يكن من أمر ، وبالرغم من عدم وجود طريقة علمية معروفة للفصل بين الحلول المقترحة ، فان الشيء الواضح هو أن هناك تفاعلاً بين الظواهر الجسدية والظواهر النفسية أو العقلية مهما كان الاسم الذي يطلق على هذا التفاعل .

ويطلق اسم علم النفس الفيزيولوجي ، أو علم النفس البيولوجي (والاسم الأول هو الأكثر شيوعاً) على الدراسة العلمية للعلاقة بين الافاعيل البيولوجية والسلوك . وقد غدا علماء النفس معنيين بالعمليات البيولوجية التي تحدث داخل العضوية ، ولاسيما داخل الدماغ ، لأنهم وصلوا الى الاقتناع بأن دراسة هذه العمليات توسع فهمهم للسلوك توسيعاً كبيراً . فبما أن مدى السلوك ونوعيته ومرونته محددة ، الى